مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
www.palestine-studies.org
مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 11، العدد 41 (شتاء 2000)، ص 137

الوطن المخيم ـ الوطن المنفى

الياس خوري*

عندما حوّل المخرج السينمائي توفيق صالح رواية غسان كنفاني "رجال في الشمس"، إلى فيلم سينمائي، قام بتغيير العنوان. فأصبح "المخدوعون" هو اسم الفيلم الذي استُقيت مادته كلها من رواية تحمل عنواناً آخر. والمسألة تتعدى في دلالاتها ما يقوم به المخرجون السينمائيون في العادة، حين يقتبسون عملاً روائياً للشاشة. إذ يقومون لا بتغيير الاسم فقط، بل أيضاً بتغيير بعض الملامح الدرامية، من أجل إخضاع الأدب للغة فنية أُخرى.

غير أن ما قام به توفيق صالح يتعدى، في رأيي، هذا المقترب لأنه مسَّ جوهر الدلالة في العنوان؛ فبينما يحيلنا عنوان الرواية على لحظة درامية تعد بمواجهة مقبلة، فإن عنوان الفيلم يلتف على الدلالة الأدبية وصولاً إلى معنى يجسد واقعاً رمزياً لشعب خُدع، ووجد نفسه يحترق برمال الصحراء.

السؤال الذي تطرحه لعبة الدلالات في العنوانين، يجد في مفارقة كنفاني/حبيبي مجالاً أكثر رحابة. فهل سعيد س. في "عائد إلى حيفا"، هو سعيد المتشائل الذي يجعل حيلته وسيلة للبقاء في فلسطين التي صار اسمها إسرائيل؟ وهل نقد حبيبي لـ دوف أو خلدون كنفاني، هو جزء من سؤال البحث عن الاسم، الذي كان سؤال الثقافة الفلسطينية لنفسها منذ النكبة؟

---

* روائي لبناني ورئيس تحرير "الملحق" الأدبي لجريدة "النهار" اللبنانية.

وحين اخترتُ "باب الشمس" عنواناً لروايتي "الفلسطينية" كنت أنحاز، في الأساس، إلى المرأة العاشقة في الجليل أو في مخيمات الأردن ولبنان، ولكني كنت أحاول أيضاً أن أقول لإميل حبيبي إن "المتشائل" يستطيع أن يكون رجلاً في الشمس، حتى داخل مغارة، من دون أن يعني ذلك أنه ليس مخدوعاً أو مخادعاً.

أستطيع داخل لعبة الأسماء والعناوين الذهاب إلى ما هو أبعد، من أجل أن أسأل محمود درويش من هي ريتا. هل أصبحت ريتا في وعي القارئ اسماً فلسطينياً، على الرغم من أنها فتاة إسرائيلية (وهذا واضح في القصائد الدرويشية)؟ وحين نستعيد ريتا اليوم، من "ريتا والبندقية" إلى "شتاء ريتا الطويل"، أو حين نستمع إلى مارسيل خليفة يغني ريتا (قبل محاكمته وبعدها!)، فما هي الصورة التي تتراءى لنا؟ هل نرى فيها الآخر مرآة، وماذا يميز هذه المرآة من المرايا النسائية التي حفلت بها "مواسم الهجرة إلى الشمال" في الرواية العربية؟

أميل إلى قراءة ريتا من زاوية أُخرى، بصفتها التباس الاسم الفلسطيني في وعي النكبة، ومحاولة الشعر رسم بعد إنساني لألم هائل لم يكن قادراً على اكتشاف أسمائه. ريتا صارت اليوم اسماً رمزاً فلسطينياً. وأعتقد أن دراسة متأنية لريتا واحتمالاتها الدلالية، سوف تفتح حقلاً جديداً لقراءة إشكال الاسم والهوية بعد النكبة.

هل نقرأ ريتا بصفتها محاولة للاستيلاء على أحد أسماء الآخر، بعد أن نجح الآخر في الاستيلاء على كل الأسماء ومحوها؟ أم نقرأ فيها حواراً عميقاً مع الذات الغائبة ـ الحاضرة، مثلما سُمي فلسطينيو إسرائيل في مرحلة الحكم العسكري؟

بدأتُ هذا المقال بالأدب لأنني لا أريد التحدث عن حضوره، وإنما عن غيابه. فالملاحظة الأساسية التي يخرج بها الدارس للأدب الفلسطيني المعاصر، هي غياب سرد النكبة. طبعاً سنعثر على شذرات من هذا السرد في أعمال روائية أو شعرية متفرقة

(″المتشائل″؛ ″أرابيسك″؛ ″عائد إلى حيفا″؛ ″لماذا تركت الحصان وحيداً″؛ إلخ)، لكننا سنفاجأ بغياب السرد الشامل لتاريخ الاقتلاع والطرد والجريمة. وأميل إلى تفسير هذا الغياب بظاهرة ″الوطن ـ اللاجئ″، التي طبعت الأعوام الخمسين الأولى من النكبة.

فاللجوء إلى الضفة الغربية وغزة والدول العربية المجاورة، تَشكَّل أساساً في مخيمات قامت باستعادة القرى والدساكر التي محاها الاحتلال، عبر استعارة الأسماء القديمة.

وهكذا فقد حملت فكرة اللاجئ ثلاثة عناصر في داخلها:

العنصر الأول هو استعادة الأسماء والعلاقات الاجتماعية، كما كانت تقريباً، في فلسطين قبل النكبة. وهي لم تكن استعادة وهمية، وإنما استعادة حقيقية بمقدار ما تستطيع غريزة البقاء أن تكون كذلك. فأعيد تنظيم الأحياء بحسب القرى الأصلية، وأعيد إنتاج العلاقات الاجتماعية (علاقات القرابة في شكل أساسي)، بصورة شبه مطابقة للصورة التي كانت عليها قبل النكبة. أي أن اللاجئ استعاد ما سُلب منه بالكلمات من جهة، وبتأكيد العلاقات الاجتماعية التي جُردت من عناصرها المادية، من جهة أُخرى.

العنصر الثاني هو الموقت. كل شيء موقت في حياة اللاجئ، من الخيمة إلى سقف الزنكو إلى الباطون. العيش في الموقت كان يعني أن استعادة الماضي القريب (أو البعيد) ممكنة في الكلام، غير أن تسجيلها في الكتابة سيعني انتقالها من الموقت إلى الدائم. لذلك وجد عدد من المؤرخين ضالتهم في التاريخ الشفهي الذي يسد ثغرة غياب المكتوب، ووجد بعض الروائيين، وأنا واحد منهم، وهم يعملون على تحويل الشفهي إلى المكتوب، أن هذا التحويل لن يكون مجرد تسجيل للوقائع، بل سيفتح الباب أمام احتمالات جديدة لتشكُّل السرد الروائي نفسه.

العنصر الثالث هو الانتظار. فلقد أنتج اللجوء ما يمكن تسميته دينامية الانتظار. الانتظار الفلسطيني لم يكن جامداً، إذ بدأ يتحرك منذ الأيام الأولى للنكبة مع المتسللين، ثم اتخذ لنفسه صورة الفدائي بعد سنة 1965، وانشبك بالانفجار الداخلي في الأردن ولبنان، قبل أن يصل إلى الانتفاضة وما بعدها.

هذه العناصر الثلاثة: الاستعادة والموقت والانتظار، شكّلت ما يمكن تسميته الوعي اللجوئي؛ وهو وعي صنع تاريخاً كاملاً في الثقافة والسياسة، وأسس بنى اجتماعية واقتصادية (وخصوصاً في دول الخليج) ساهمت في صناعة "دولة اللاجئين"، وصوغ مؤسساتها وثورتها، فتشكّلت منظمة التحرير بصفتها مصباً لروافد شتى صنعها حلم اللاجئين بالعودة القريبة.

لا أريد تقديم تحليل سوسيولوجي لهذه الظاهرة التي احتلت نصف قرن من التاريخ الفلسطيني، لكن لا بد من الإشارة إلى أن سقوط المدن الكبرى الثلاث: يافا وحيفا والقدس الغربية سنة 1948، ساهم في تغليب الجانب الفلاحي على الثقافة اللجوئية التي هيمنت على الثقافة الفلسطينية ووسمتها بميسمها.

لم يحفل الوعي اللجوئي بتسجيل وقائع النكبة (الكتابة تحول الأشياء إلى أمور حقيقية ونهائية)؛ ولم يستطع الموقت سوى إنتاج أطره الموقتة؛ وكانت المسافة القصيرة التي تفصل مخيمات اللاجئين في صور عن قراهم في الجليل، تؤشر إلى إمكان عبورها في أية لحظة.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الوعي اللجوئي ترسخ بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967، إذ نما الوعي الوطني الفلسطيني على حساب الانتماء القومي العربي، ولم يجد هذا الوعي مكانه إلاّ في المخيم.

السؤال الذي يُطرح اليوم، داخل ما يسمى "عملية السلام"، وبعد نشوء السلطة الفلسطينية على جزء من أرض فلسطين، ليس عن مصير اللاجئين فقط، بل عن مصير الوعي اللجوئي برمته أيضاً.

هل بدأ الانتقال من اللجوء إلى المنفى؟ وما هو الفارق بين الحالين؟ وإذا كان اللجوء قد صنع الثورة الفلسطينية المعاصرة، فماذا يستطيع المنفى أن يصنع؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، أود أن أوضح أن طرحه لا يعني، في أي حال، القبول بطي حق العودة، أو المساومة في شأنه، أو التنازل عنه على طاولة المفاوضات. فأنا أعتقد أن الحل النهائي مستحيل، لأن لا حل نهائياً من دون تأكيد حق العودة وتنفيذه. وكل محاولة للمساومة في شأن هذا الحق لن تكون إلاّ جزءاً من الاندراج في المشروع الصهيوني، مهما تتخذ لنفسها من أسماء "واقعية" أو "عملية".

هل بدأ الانتقال من اللجوء إلى المنفى؟

اللجوء كان وعياً بالموقت، أمّا المنفى فوعي بالدائم. وهذا لا يعني أن الدائم ثابت إلى الأبد (مقولة الأبد، والقدس عاصمة أبدية لإسرائيل تثير الشفقة والسخرية عند من يملك حداً أدنى من المعرفة التاريخية)، وإنما يعني أن الوعي الجديد، أي وعي ما بعد التسوية التي تفرضها اليوم نهاية الحرب العالمية الثالثة التي سُميت الحرب الباردة، سوف يتشكل ويعيد تنظيم نفسه في وعي غير انتظاري اسمه وعي المنفى.

الوصول إلى وعي المنفى لن يعني انتفاء الالتزام الوطني، أو تهميشه. فالواقع الفلسطيني لا يشبه أي واقع آخر في العالم، لأن المكان الأكبر للمنفى سوف يكون الوطن الفلسطيني نفسه، الذي سيبقى في توتر دائم مع عدوه التاريخي، ومغتصب أرضه، مهما تبلغ دقة التسويات، وصرامة الفصل بين الشعب الفلسطيني وأرضه التي تتخذ اليوم اسماً إسرائيلياً.

المنفى الفلسطيني بالغ التعقيد لأنه يتشكل في شروط متباينة، إذ إن الفارق شاسع بين "المنفى الأميركي" الذي نستطيع تبيُّن بعض ملامحه الآن، وبين صناعة "المنفى اللبناني" الذي يبدو أن هناك أهوالاً دون تشكّله، كما بين هذين المنفيين والمنفى الأردني، الذي سوف يحافظ على طبيعته الملتبسة بحكم الكثافة السكانية هناك.

غير أن مركز هذا المنفى، ونقطة تشكُّل وعيه بذاته، سوف تكونان في فلسطين نفسها. وبذلك تنقلب المعادلة التي ارتسمت في زمن الوعي اللجوئي، حيث تشكل الوعي في الخارج، واتخذ ملامحه هناك.

الوطن الفلسطيني، أو الدولة الفلسطينية، التي ستبقى في الشروط العربية والدولية الراهنة منقوصة السيادة، سوف تكون الوطن المنفى. وهذا يعود، في رأيي، إلى سببين أساسيين:

السبب الأول هو كثافة عدد اللاجئين في الضفة الغربية وغزة. فمن مجموع عدد السكان الذي يبلغ ثلاثة ملايين نسمة، هناك نحو مليون وستمئة ألف لاجئ يعيشون في ثمانية مخيمات في غزة، وفي سبعة عشر مخيماً في الضفة الغربية. أي أن أكثر من نصف سكان الدولة الفلسطينية هم من اللاجئين؛ وهذا يعطي الدولة الفلسطينية سمة خاصة بصفتها دولة لاجئين يتحولون اليوم، مع التسوية، إلى منفيين في وطنهم.

السبب الثاني هو طبيعة الدولة المبتغاة: حدودها المرسومة داخل الحدود الإسرائيلية؛ تشابكها مع إسرائيل على الرغم من دعوات الفصل الجغرافي؛ تبقّعها الجغرافي والطرق الالتفافية؛ واقعها الاقتصادي الذي يجعلها عاجزة عن الحياة من دون المعونات الدائمة من "الدول المانحة". أي أنها ستكون مخيماً كبيراً محاصراً بالغيتو الإسرائيلي، الذي سيسعى للانفتاح على العالم العربي، بينما يُغلِق أبوابه في وجه الفلسطينيين.

هذان السببان، بالإضافة إلى وجود أعداد كبيرة من اللاجئين في إسرائيل، داخل ما أصبح يسمى القرى غير المعترف بها، وإلى الواقع الاجتماعي في قرى الجليل والمثلث حيث امتزج اللاجئون بالسكان، يرسمان أمامنا واقعاً اجتماعياً ـ سياسياً ـ ثقافياً جديداً، يمكن أن نطلق عليه اسم الوطن المنفى.

الفارق الجوهري بين اللجوء والمنفى لن يكون غياب المخيمات، ولا غياب إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، فهذان واقعان سوف يستمران طويلاً في زمن المنفى، وإنما هو فارق في الوعي.

وعي المنفى سوف يختلف جذرياً عن الوعي السابق. وأستطيع أن أتلمس ثلاثة مظاهر لهذا التغيّر:

1 ـ الكتابة سوف تحل مكان الشفهي، بعد أن تقوم بتسجيل ما تستطيع من عناصره في الذاكرة.

2 ـ الوعي بالدائم سيحتل مكان الوعي بالموقت، الأمر الذي يستدعي نظراً في المشكلات الملموسة، ويفرض نقداً ذاتياً مستمراً.

3 ـ الصورة سوف تتحرر من الرمز، فيصبح المجتمع/المجتمعات/التجمعات، أكثر حقيقية، وتنكشف تناقضاتها واحتمالاتها.

أستطيع أن أرى ملامح أدب المنفى في كتابات إدوارد سعيد ومحمود درويش، كما أستطيع أن أرى ملامحه السياسية في هذا المخاض الشديد، الذي يعيشه الفلسطينيون في مختلف أماكن لجوئهم/منافيهم، وهو يتشكل على حفتي الخطر والمذبحة.

غير أن وعي المنفى لا يتناقض مع فكرة العودة، لأنه سيبلورها في صيغة جديدة ورؤية أُخرى. وستصبح العودة ذهاباً، الأرض تغيرت، والناس تغيروا أيضاً، لذلك فإن

العودة، التي أنا على يقين من أنها ستأتي، في يوم قد يبدو بعيداً الآن، سوف تكون تأسيساً جديداً لفكرة فلسطين بصفتها أرض حرية وأرض تحرير للمضطهَدين من مضطهديهم، وللمضطهِدين من أوهامهم.

لقد نجحت إسرائيل في تحويل الأسطورة إلى تاريخ. وهذا التاريخ فرض وجوده على المشرق العربي بقوة العنف والجريمة، ونتيجة واقع فلسطيني وعربي مفكك وعاجز.

والسؤال هو: متى ينجح الشعب الفلسطيني في تحويل تاريخه إلى تاريخ؟ ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf